

## الحياة الثقافية في بغداد في التراث العربي الإسلامي عصر السيادة الإسلامية

■ عمرو عبد العزيز منير ■

يُطغى التاريخ السياسي غالباً على التاريخ الثقافي، ولا تكاد تذكر الثقافة إلى جانب السياسة إلا عرضاً وتمجيداً لشخص أو لحكم بعينه؛ وسبب ذلك أن «الحكم» مرتبط في أغلب تاريخينا العربي والإسلامي بالقوة لا بالعدل، إذا استثنينا الفترة الراشدية الأولى من تاريخ الإسلام، وومضات هنا وهناك مرّت سريعاً في تاريخ المسلمين، فكان الحكم لقوة السيف لا لمنطق العقل ولا لرعاية العدل، فكانوا لا يبالون بما يقول الفقهاء وأهل العلم والثقافة، وجلّ اهتمامهم كان منصرفاً إلى تدعيم ملكهم بحدّ السيف!

فما أجدرنا أن نقف اليوم على الحياة الثقافية للأمة؛ ففي ضوءها نستطيع أن نفهم بواعث نهوضها الحقيقية، وأسباب تقدّمها أو توقّفها الحضاري، فإذا نظرنا اليوم إلى أدبيات الأمم المتحدة؛ نجد أنها قد حدّدت مفهومين رئيسيين لتحقيق النهضة والتقدم في أي مجتمع ولأية دولة أو أمة: الأول هو التنمية المستدامة القائمة على أسس مجتمع الثقافة والمعرفة. والثاني

■ كاتب وأكاديمي من مصر.



هو الحكم الرشيد الذي يقوم على أساس الشفافية، وإعلاء شأن سيادة القانون، واحترام حقوق الإنسان، وتوزيع السلطة وعوائد الثروة على كل أطراف المجتمع من دون تمييز.

وفي تاريخنا الإسلامي وجدت مدن معرفية ثقافية عديدة، كانت تستهدف تشجيع الإبداع والتشارك والتقييم والتجديد والتحديث المستمر للمعرفة والثقافة، كالبصرة 16هـ، والكوفة 18هـ، والفسطاط 20هـ، والقيروان 50هـ، وبغداد 145هـ، وفاس 191هـ، والقاهرة 358هـ، ولهذه المدن شأن كبير في تاريخ المعرفة والثقافة الإسلامية والعربية، وإلى الآن لم يُكتب بعد تاريخ هذه المدن الثقافي إلا القليل وهي مدن ثقافية ومعرفية كانت تُعلي من شأن العلم والمعرفة. وتشجع العلم وأهله، وتعمل على نشر الثقافة والمعرفة.

حين تنقّست الحياة بين الرمال جاءت بالمنصور أبي جعفر ليقدّم مدينة معرفية كباقة نرجس إلى كل عربي، وهي بغداد التي نقلت حضارة العالم كله وأتت بها إلى عقر دارنا، أحد أهم عواصم الدنيا؛ بل أكبرها في القرنين الثالث والرابع الهجريين / التاسع والعاشر الميلاديين، وريثة مُلك كسرى ومعظم أملاك الدولة الرومانية. فتحت أبوابها لثقافة الشرق والغرب، فأخذت منها ما أخذت. وأضافت إليها ما أضافت، وأصبحت أكبر مركز ثقافي في العالم، ولسان التاريخ وأعظم قوة أرضية، وغدت نبعاً صافياً لحضارة تنفع الإنسان، وقامت فيها طوال أربعة قرون أو ما يزيد دراسات دينية ولغوية، وعلمية وفلسفية، قد لا يكون لها نظير في أي مدينة أخرى. جلب إليها مؤسسها الأول، المنصور (168هـ) الأطباء والفلكيين، وكانت نواة بيت الحكمة من الكتب الخزائنة التي جمعها أبو جعفر المنصور، وأفرد لها جناحاً خاصاً في قصر الخلد الذي كان يسكنه في المدينة المدورة، وقد انتقلت هذه الخزائنة بحكم الإرث إلى هارون الرشيد، فأقام بها (193هـ) دار الحكمة للدارسين والباحثين بعد أن نماها ووسّعها بما أضاف إليها من الكتب التي جلبت له من البلدان

الأخرى<sup>1</sup>، وبعث منها المأمون<sup>2</sup> (218هـ) البعوث للبحث عن الكتب والتراث الفكري القديم<sup>3</sup>، لتشهد المكتبة نوعاً من التصنيف في ترجمة هذا التراث الإنساني، فهذا فريق يترجم كتب الحكمة، وذاك آخر يختص بكتب الطب، وثالث يختص بكتب الهندسة والرياضيات، وكان لكل فريق أمين يقوم بعملية الإشراف على سير عملية الترجمة، ولم يكتف المأمون<sup>4</sup> بالحرص على ترجمة كتب الأمم الأخرى؛ بل إنه سعى لتشجيع الناس على قراءة هذه

**حين تنصّت الحياة بين  
الرمال جاءت بالمنصور  
أبي جعفر ليقدّم مدينة  
معرفة كباقة نرجس  
إلى كل عربي، وهي  
بغداد التي نقلت حضارة  
العالم كله وأتت بها إلى  
عقر دارنا، أحد أهم  
عواصم الدنيا.**

الكتب<sup>5</sup>، وأدى بيت الحكمة في ذلك دوراً رئيساً، فكانت خزانة بيت الحكمة هي المسرح الذي شهد هذا الازدهار لحركة الترجمة في عهد المأمون<sup>6</sup> ومن سار على دربه من خلفاء بني العباس الذين فتحوا أبواب عاصمتهم الجديدة (بغداد) أمام العلماء، وأجزلوا لهم العطاء، وأضفوا عليهم ضروب التشريف والتشجيع بصرف النظر عن مللهم وعقائدهم، فنزح كثيرون إلى عاصمة الخلافة من نيسابور وحرّان

- 1 - سليم طه التكريتي: بيت الحكمة في بغداد وازدهار حركة الترجمة في العصر العباسي (مجلة المورد، العدد الرابع، المجلد الثامن، بغداد، 1979م)، ص 199.
- 2 - اتسع نطاق العمل في بيت الحكمة اتساعاً كبيراً نتيجة ما جمعه الرشيد من خزائن الكتب القديمة التي جلبت من آسيا الصغرى، ومن الهند، وإيران، وجزيرة قبرص، بالإضافة إلى ما كان يجمعه السريان من كنائسهم وأديرتهم في الشام وبلاد الجزيرة. انظر: سليم طه التكريتي: بيت الحكمة في بغداد، مرجع سابق، ص 201.
- 3 - Madkour, L'Organon d'Aristote dans le monde arabe. Paris, 1934, r. 28-29؛ إبراهيم مدكور: الحياة الثقافية (ضمن أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة، دار الكتب، ج 1، القاهرة، 1969م)، ص 51.
- 4 - المأمون هو الخليفة العباسي عبد الله أبو العباس بن الرشيد، ولد 170هـ ولي الخلافة في الفترة من 198هـ إلى 218هـ، وكان ممن يحبون العلم ويؤثرون أهله، وللمزيد انظر: السيوطي: تاريخ الخلفاء (ط 2، دار الفجر للتراث، القاهرة، 2004م)، ص 245 - 265.
- 5 - ابن العبري (غريغوريوس الملطبي، ت 685هـ): تاريخ مختصر الدول، د.ت، ص 136.
- 6 - هالة شاكر: المكتبات في المشرق الإسلامي: إيران، خراسان، ما وراء النهر (دار عين للدراسات، القاهرة، 2013م)، ص 58.



ونصبيين وغيرها من مراكز العلم والفكر القديمة، ولم يترك الخلفاء في بغداد طريقاً لاجتذاب أشهر العلماء ورجال الفن في العالم إلا سلكوها، ومن ذلك أن أعلن أحد أولئك الخلفاء الحرب على قيصر الروم ليأذن لأحد الرياضيين المشهورين في التدريس ببغداد<sup>1</sup>، ومن ذلك ما عُرف من أن الخليفة أبا جعفر المنصور عني بترجمة الكتب إلى العربية، سواء الكتب اليونانية أم الفارسية أم الفهلوية<sup>2</sup>. وفي نحو قرنين نشطت فيها حركة ترجمة فريدة في بابها؛ فريدة في اللغات التي أخذت عنها، فنقلت عن ست لغات شرقية وغربية: العبرية والسريانية، والفارسية والهندية، واليونانية واللاتينية. وفريدة في الموضوعات التي انصبت عليها، فاشتملت على الأدب والتاريخ، والقصص والدين، والعلم والفلسفة. وفريدة أخيراً فيمن اضطلعوا بها؛ فقد أسهم فيها الفرس والعرب، وأهل الكتاب والمسلمون. وحظي مترجمو المسيحيين من نساطرة ويعاقبة بتسامح ديني كان مضرب المثل مما كان سبباً رئيساً لنجاح بغداد كمدينة معرفية مبنية على التنوع، وقد أتاحت للأفراد الموهوبين بشكل خلاق أن يعيشوا في مدينة اتصفت بالتنوع والتسامح والانفتاح. فكان مناخ بغداد المعرفي

- 1 - غوستاف لوبون: حضارة العرب (ترجمة عادل زعيتر، مكتبة الأسرة، القاهرة، 2000م)، ص 174.
- 2 - كان المنصور حريصاً على جمع الكتب وترجمتها لتتم الاستفادة منها، لذا لم يكن عجباً والحالة هذه أن نرى جورجس بن جبريل ذلك الطبيب السرياني يترجم للمنصور بعض الكتب من اليونانية إلى العربية، وقد شهد عصر المنصور أيضاً ترجمة كتاب الأركان، وهو أبسط ما وضع للمتعلمين في علوم الهندسة، ومن المترجمين الذين أمرهم أبو جعفر المنصور بترجمة بعض المؤلفات البطريق الذي ذكره ابن النديم، وقال: «كان أيام المنصور، وأمره المنصور بنقل أشياء من الكتب القديمة». وسعى المنصور إلى نسخ كتب مالك بن أنس وتوزيعها على الأمصار وهو ما يعدُّ دليلاً على مدى اهتمام المنصور بأمر كتب العلم، حتى الديني منها. للمزيد انظر: الزركلي: الأعلام (قاموس التراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين، (ج 2، ط 7، بيروت، 1986)، ص 146؛ ابن النديم (أبو الفرج محمد بن إسحاق، ت 385هـ): الفهرست، (دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، 1978م)، ص 340؛ سعيد عبد الفتاح عاشور، وآخرون: دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية العربية (منشورات ذات السلاسل، ط 2، الكويت، 1986م)، ص 88؛ هالة شاكر: المكتبات في المشرق الإسلامي، ص 44؛ هالة شاكر: المكتبات في المشرق الإسلامي، ص 43 - 44.

محضراً أساسياً لتلاقي وتنقيح الأفكار والممارسات، ومشجعاً على تدفق المعرفة بمعدلات أكبر<sup>1</sup>.

وقدرت جهودهم أعظم تقدير، وأجزل لهم العطاء والمكافأة، وكانت تباع ترجمة بعضهم بما يوازي وزنها ذهباً<sup>2</sup>، مثل ترجمات «حنين بن إسحق» الذي كان يعتمد إلى الكتابة على ورق سميك وبأحرف كبيرة؛ لكي ترتفع زنتها، فتزداد مكافأته<sup>3</sup>. أضف إلى ذلك ما كانوا يحصلون عليه من أموال وهبات من الخلفاء العباسيين، ومن ذوي الاهتمام بالعلوم والمعرفة

من أمثال بني برمك، وبني شاكر المنجم، ومنهم الوزير «محمد بن عبد الملك بن الزيات» الذي كان يقارب عطاؤه للنقلة وللنساخ ألفي دينار في الشهر<sup>4</sup>. فانتشرت المكتبات الخاصة بشكل هائل لم يسبق له مثيل، وفي هذا يذكر ابن النديم أن الواقي<sup>5</sup> خلف بعد وفاته ستمائة قمطر كتباً، كل قمطر منها حمل رجلين وكانت تتسم بالتنوع، ومن خزائن الكتب الخاصة خزانة إسحق بن إبراهيم الموصللي الذي اشتهر بالغناء؛ إلا أنه كان من أهل العلم والمعرفة،

**حظي مترجمو المسيحيين من نسطرة ويعاقبة بتسامح ديني كان مضرب المثل مما كان سبباً رئيساً لنجاح بغداد كمدينة معرفية مبنية على التنوع، وقد أتاحت للأفراد الموهوبين بشكل خلاق أن يعيشوا في مدينة اتصفت بالتنوع والتسامح والانفتاح.**

- 1 - فرانثيسكو خافيير كاييلو: مدن المعرفة: المداخل والخبرات والرؤى (ترجمة: خالد علي يوسف، سلسلة عالم المعرفة، العدد 381، الكويت 2011م)، ص 37 بتصرف.
- 2 - Madkour, *Ibid.* p. 32-33؛ إبراهيم مدكور: الحياة الثقافية، ص 53.
- 3 - سليم طه التكريتي: بيت الحكمة في بغداد، مرجع سابق، ص 202.
- 4 - سليم طه التكريتي، المرجع السابق، ص 202.
- 5 - الواقي: أبو عبد الله محمد بن عمر الواقي مولى الاسلاميين من سهم بن أسلم وكان يتشيع ويلزم التقية وهو الذي روى أن علياً عليه السلام كان من معجزات النبي صلى الله عليه وسلم كالعصا لموسى عليه السلام وإحياء الموتى لعيسى بن مريم عليه السلام وغير ذلك من الأخبار وكان من أهل المدينة، انتقل إلى بغداد وولي القضاء بها للأمون بعسكر المهدي، وكان عالماً بالمغازي والسيّر والفتوح واختلاف الناس في الحديث والفقه والأحكام، وُلد سنة ثلاثين ومائة ومات عشية يوم الاثنين لإحدى عشرة ليلة خلت من ذي الحجة سنة سبع ومائتين وله ثمان وسبعون سنة. انظر: الفهرست 128/1.



وسأل المأمون أن يكون دخوله مع أهل العلم والأدب والرواة لا مع المغنين، وممن عرف عنهم كثرة الكتب والمؤلفات هشام الكلبي الذي توفي عام ست ومائتين من الهجرة، وقد ذكر له ابن النديم مجموعات متنوعة من الكتب والمؤلفات ما بين كتب في المآثر والأحلاف، وأخرى في أخبار الإسلام وأخبار البلدان، وأخبار الشعر وأيام العرب، وكتباً في الأسمار وغيرها من الأنساب، وذكر له ابن النديم أكثر من مائة وأربعين كتاباً، وهذه في حقيقتها ليست سوى أمثلة بسيطة تعكس لنا الروح التي سادت العصر من الحرص على الكتب والمكتبات والثقافة والمعرفة.<sup>1</sup>

هكذا شهد عصر المأمون ظاهرة ثقافية مهمة عبّرت عن نفسها في مؤسسة بيت الحكمة، التي كانت بحق علامة مضيئة على طريق إنشاء دور وخزائن الكتب أحد أهم دعائم نشر الثقافة والمعرفة، فكانت مثلاً احتذى به الكثيرون من العلماء والمفكرين فسعوا إلى إنشاء دور ومراكز معرفية على غرارها<sup>2</sup> فكان إنشاء بيت الحكمة في بغداد فتحاً مبيناً للعرب المسلمين في ميدان العلم والمعرفة، يضاهاي فتوحاتهم الكبرى في ميادين السياسة، فكان بيت الحكمة أهم خزائن الكتب في الإسلام على اختلاف دوله وعصوره<sup>3</sup>، وداعماً رئيساً لبغداد كمدينة معرفية وأمرأً أساسياً لنجاح مدينة المعرفة، وحجر أساس لمدرسة بغداد التي ظلّ تأثيرها حتى النصف الثاني من القرن الخامس عشر، ويرجع الفضل إلى هذه المدرسة الزاهرة في الحفاظ على استمرارية الحضارة، وإصلاح سلسلة المعارف الإنسانية التي حطّمتها بقسوة في القرن السادس الميلادي اضمحلال روما وسقوطها<sup>4</sup>. فلم تكن مكتبات بغداد العامة والخاصة بالقصور أماكن لأرشفة الإنجازات

1 - هالة شاكرا: المكتبات في المشرق الإسلامي، ص 65.

2 - هالة شاكرا: المكتبات، ص 63.

3 - سليم طه التكريتي، المرجع السابق، ص 203.

4 - حيدر بامات: إسهام المسلمين في الحضارة (ترجمة وتقديم ماهر عبد القادر، المركز المصري للدراسات والأبحاث، الإسكندرية، 1986)، ص 18؛ عامر النجار: حركة الترجمة وأهم أعلامها في العصر العباسي (دار المعارف، القاهرة، 1993م)، ص 10.

الفكرية للأجيال الماضية فحسب؛ ولكنها أيضاً كانت مكاناً للابتكار نشطاً وحيوياً أمكن فيه خلق المعرفة وتبادلها، وأمکن للأفكار أن تتولّد والابتكار أن يحدث من خلال احتكاك الأفكار والآراء<sup>1</sup>.

وكان الخلفاء يعدون أنفسهم حماة للعلم، ويرون أن قصورهم يجب أن تكون مركزاً تشع منه الثقافة والمعرفة، ويلتقي فيه العلماء والأدباء، وقد ذكر أن المعتضد بالله خصص في قصره دوراً ومسكن ومقاصير، يرتب فيما أمر رؤساء كل صناعة ومذهب من مذاهب العلم النظرية والعلمية، ويجري عليهم الأرزاق السنوية؛ ليقصد كل من اختار علماً أو صناعةً رئيساً

ما يختاره فيأخذ عنه، وكذلك ارتبط تاريخ هذه الصالونات أو الجمعيات أو المجالس العلمية بتاريخ القصور البغدادية، وبخاصة قصور الخلفاء، وتنوّعت هذه الصالونات، فقد كان منها الأدبي، ومنها العلمي، وفيها الفني والموسيقي، وظلت صالونات العلم والأدب فيما يروي صاحب الأغاني أرفعها قدراً، وكان الرشيد واسع الثقافة، وقد جمع حوله صفوة من العلماء والأدباء وكذلك كان المأمون، بلغت هذه الصالونات وتلك المجالس الذروة<sup>2</sup>

**شهد عصر المأمون ظاهرة ثقافية مهمة عبّرت عن نفسها في مؤسسة بيت الحكمة، التي كانت بحق علامة مضيئة على طريق إنشاء دور وخزائن الكتب أحد أهم دعائم نشر الثقافة والمعرفة.**

وأشاعت روح البحث عن الثقافة والمعرفة، ونشأ شعور عام بالإلحاح المعرفي المجتمعي، والإيمان بضرورة حرية تداول المعرفة من أجل تحسين وضع المجتمع البغدادي في عصر كانت المعرفة عنوانه، هذه الرغبة المجتمعية في التغيير - والتي يمكن اعتبارها الشرارة لاتخاذ أي إجراء حضاري مستقبلي - كان لا بد لها من أن تترجم إلى إرادة سياسية، وما كان لبغداد أن تنجح في مسعاها إلى التطور كمدينة للمعرفة في

1 - فرانثيسكو خافيير كاييلو: مدن المعرفة، ص 41.

2 - عبد الحلیم منتصر: تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه، (مكتبة الأسرة، القاهرة، 2013م)، ص 37؛ هالة شاكر: المكتبات في المشرق الإسلامي، ص 52، 53.



عصور السيادة الإسلامية من دون دعم واضح من أعلى المستويات السياسية والقيادات المحلية آنذاك. مما يدحض فرضية اعتبار التحول إلى التنمية القائمة على المعرفة خياراً يمكن التخلّي عنه، أو ترفاً فكرياً يمكن إحراز التقدم من دونه<sup>1</sup>.

وتتلور قوة بغداد الثقافية في خدمة المعرفة في اتجاهين رئيسين:

**أولهما:** استيعاب علماء ورجال الفكر والثقافة ببغداد لأركان العلوم الإنسانية وتشرب روحها مما مكّنهم من فهمها فهماً عميقاً، والربط بين أطرافها، وعليه فقد شرحوا بعض جوانبها شرحاً دقيقاً، وفسروا الكثير من مبادئها تفسيراً لم يسبقهم إليه غيرهم من المفكرين والعلماء.

**وثانيهما:** إن الفضل يرجع إلى كثير من علماء وفلاسفة بغداد في حفظ التراث اليوناني، فلم يتلقَ الغرب هذا التراث اليوناني، عبر الحافظة العربية البغدادية فحسب، وإنما وجده مزوداً بشروح ضافية وضعها علماء المسلمين<sup>2</sup>. فما إن عُرب هذا التراث حتى أخذ البغداديون يتدارسونه، ملخصين له ومقربين، أو شارحين وموضحين، ولم يقنعوا بهذا، بل بدأوا يبحثون بأنفسهم، ويكتبون على طريقتهم<sup>3</sup> في كافة مناحي العلم، والثقافة، والفنون، والعمران، والازدهار الحضاري، فكانت مدرسة بغدادية متكاملة، مثّلت الفكر العربي الإسلامي، وبرزت في الفلسفة، وعلم الكلام، والفقه، والفنون، والعلوم الطبيعية، والآداب<sup>4</sup>، فأسسوا المدارس والمعاهد وأقاموا المراصد والمعامل، ونتيجةً لازدهار العلوم الطبيعيّة في المدينة الإسلاميّة كان من الطبيعي أن ينشأ في هذه المدينة مرفق معماريّ يأوي المرضى، ويضمّ الأطباء الذين يعالجون هؤلاء المرضى. وقد اتّفق المؤرّخون على تسمية هذا المرفق بـ «البيمارستان»،

1 - فرانسيسكو خافيير كاييلو: مدن المعرفة، ص 36 بتصرف.

2 - سعيد عاشور: دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية، ص 96.

3 - إبراهيم مدكور: الحياة الثقافية، مرجع سابق، ص 53.

4 - جليل كمال الدين: بغداد مركز العلم والثقافة العالمية في القرون الوسطى (مجلة المورد، العدد

الرابع، مجلد الثامن، بغداد، 1979م)، ص 248.

أو «المارستان»<sup>1</sup>. ويُعتبر البيمارستان شكلاً متطوراً من أشكال التطور المدني والمعرفي الذي شهدته بغداد، بفضل ازدهار علم الطب؛ لأنه من الصناعات التي لا تستدعيها إلا انتشار العمران والحضارة والترف في المدن الإسلامية. على حدّ تعبير ابن خلدون<sup>2</sup>.

وعُرف عن قادة بغداد العباسية اهتمامهم بإنشاء البيمارستانات؛ فقد أقام البرامكة بيمارستاناً في عهد الخليفة هارون الرشيد، وأسندوا رئاسته إلى الطبيب ماسويه، ثم إلى ابنه يوحنا. وازدادت البيمارستانات في الدولة العباسية زيادة واضحة، حتى بلغت سنة 304هـ/916م في عهد الخليفة

**عُرف عن قادة بغداد العباسية اهتمامهم بإنشاء البيمارستانات؛ فقد أقام البرامكة بيمارستاناً في عهد الخليفة هارون الرشيد، وأسندوا رئاسته إلى الطبيب ماسويه، ثم إلى ابنه يوحنا.**

العباسي المقتدر بالله خمسة، أشرف على إدارتها الطبيب الشهير سنان بن ثابت، وإليه يرجع الفضل في إنشاء بيمارستانين كبيرين، سُمي الأول البيمارستان المقتدري نسبة إلى الخليفة العباسي المقتدر بالله بن المعتضد (295 - 320هـ/908 - 932م)، الذي أنفق عليه من ماله الخاص. أمّا الثاني فكان تحت رعاية أمّ المقتدر<sup>3</sup>.

وأنشأوا المشافي والملاجئ؛ ودرسوا وبحثوا، ولاحظوا وجربوا، وآتت دراساتهم وتجاربهم ثماراً طيبة في علوم الدين واللغة، والطب والكيمياء، والرياضة والفلك،

- 1 - (البيمارستان) المشفى (فأرسي مُعرب)، (المارستان) المصححة أو المشفى. انظر: المعجم الوسيط (مجمع اللغة العربية بالقاهرة 1993م)، 1/79، 2/863؛ محمد عبد الرحمن يونس: فضاء البيمارستان والعلوم الطبية والصيدلانية في المدينة العربية والإسلامية - حكايات ألف ليلة وليلة نموذجاً، (منشورات جامعة ابن رشد - كلية اللغة العربية، هولندا، دت)، ص 4.
- 2 - ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، مقدّمة ابن خلدون، (ج 3، تحقيق د. علي عبد الواحد وافي، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، 1980م)، ص 1143؛ محمد عبد الرحمن يونس: فضاء البيمارستان، ص 4.
- 3 - سعيد عبد الفتاح عاشور: المرأة والمؤسسات الاجتماعية في الحضارة العربية، (دار المعارف للطباعة والنشر، تونس، 1994م)، ص 60؛ محمد عبد الرحمن يونس: فضاء البيمارستان، ص 8.



والفلسفة والموسيقى. وورثت بغداد المدينة والبصرة، وحلّت محلّ أثينا والإسكندرية. وأضحت مدينة العلم الكبرى في القرن العاشر الميلادي، وهو العصر الذهبي في تاريخ الفكر والثقافة الإسلامية. وأخذت تشع أضواءها شرقاً وغرباً. وتغذّي المدن الأخرى بعلمها ورجالها.

ولا نزاع في أن الحركة العلمية في العالم الإسلامي مدينة لها بنصيب كبير، ولولاها ما كان طب ولا فلك ولا رياضة.

وعلى هذا لم يكن غريباً أن يحج إليها العلماء من مختلف الأقطار، بعد أن يتلقوا تعليمهم الأولي في مدنهم وقراهم، ثم إنهم يرحلون إلى العاصمة الكبرى لينهلوا من حياضها، ويستكملوا وسائل البحث والدراسة. والرحلة في طلب العلم والمعرفة سنة استنتها رواة اللغة والحديث من قديم، وأخذ بها الباحثون الآخرون. ولا نستطيع أن نستقصي هنا كبار العلماء الذين قصدوا بغداد، وكان لهم فيها مقام، ويكفي أن نشير إلى أمثلة منهم، وبخاصة بعض أئمة الدراسات العلمية الكلامية والفلسفية. ومن هؤلاء جابر بن حيان (190هـ) أبو الكيمياء العربية فقد شب في الكوفة، ثم قصد بغداد في عهد مبكر، وتابع فيها دراسة الكيمياء<sup>1</sup> فكان قمة من قمم الثقافة البغدادية، ومفخرة من مفاخر الثقافة. ونشأ أبو بكر الرازي (314هـ) - وهو أكبر أطباء الإسلام - بمدينة الري التي لا تزال آثارها باقية على بضعة كيلومترات من طهران، ثم انتقل إلى بغداد ورأس أكبر مشفى بها، وهو البيمارستان العضدي الذي نمى فيه تجاربه الكيميائية وملاحظاته الطبية<sup>2</sup> وبها اكتشف خيوط الجراحة من أمعاء الحيوان، والتي أسهمت في تطوير الجراحة الداخلية<sup>3</sup>، فتوافرت له بيئة خصبة للعلوم الطبية لا سيما وقد أضحت بغداد العبّاسيّة قبلّة لعشاق الطبّ والمعرفة؛ إذ نشر العبّاسيون العلوم الطبيّة، وأسّسوا المدارس الطبيّة، والبيمارستانات، ودعوا إلى عقد المؤتمرات

1 - ابن النديم: الفهرست، القاهرة، 1932، ص 499؛ إبراهيم مدكور: الحياة الثقافية، ص 52.

2 - المصدر السابق، ص 415 - 420؛ إبراهيم مدكور: الحياة الثقافية، ص 52.

3 - أحمد شوقي الفنجري: العلوم الإسلاميّة، ج 3، (مؤسسة الكويت للتقدّم العلمي، الكويت، الطبعة الأولى، 1985م)، ص 66.

الطبيّة، في مواسم الحجّ، والتي يجتمع فيها الأطباء من البلاد الإسلاميّة كافة، حيث يعرضون نتائج أبحاثهم. وقد غدت بغداد في الشرق من أهمّ المراكز الثقافيّة الطبيّة في العالم الإسلامي<sup>1</sup>. تعرف كيف تستمع وتدعم المرجعيّات المختلفة وجهات النظر والثقافات والخبرات المتعددة لمواطنيها، والتي تسهم إسهاماً حقيقياً في اتجاه طرح الأفكار الجديدة التي من شأنها دعم الابتكار<sup>2</sup>.

فقد تربى أبو الحسن الأشعري (330هـ) في البصرة تحت كنف أبي علي الجبائي المعتزلي، ثم هجرها إلى بغداد في أوائل القرن الرابع الهجري، ودعا إلى مذهبه الذي قدّر له أن يكون عقيدة أهل السُنّة إلى اليوم<sup>3</sup>. وقضى أبو نصر الفارابي (339هـ) - وهو معاصر للأشعري وأبي بكر الرازي - النصف الأول من حياته تقريباً في فاراب، من بلاد الترك، ثم سعى إلى بغداد ليقف على ما فيها من علوم ودراسات، وانتهى به الأمر أن أصبح رئيس مدرسة فلسفية ومنطقية<sup>4</sup>. وأمضى الغزالي (505هـ) العشرين سنة الأولى من حياته في طوس وجرجان، ثم مكث في بغداد عشرين سنة أخرى فتحت أمامه آفاقاً جديدة، وربطته بالتيارات الفكرية المختلفة، فتولى التدريس في المدرسة النظامية، وعزّز المذهب الأشعري، وردّ على

**أضحت بغداد العباسيّة قبلة لعشاق الطبّ والمعرفة؛ إذ نشر العباسيون العلوم الطبيّة، وأسّسوا المدارس الطبيّة، والبیمارستانات، ودعوا إلى عقد المؤتمرات الطبيّة، في مواسم الحجّ، والتي يجتمع فيها الأطباء من البلاد الإسلاميّة كافة.**

- 1 - حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، (العصر العباسي الثاني في الشرق ومصر والمغرب والأندلس)، (مكتبة النهضة المصرية، ط 13، القاهرة، 1991م)، 404/4.
- 2 - فرانثيسكو خافيير كاييلو: مدن المعرفة: المداخل والخبرات والرؤى (ترجمة: خالد علي يوسف، سلسلة عالم المعرفة، العدد 381، الكويت 2011م)، ص 38 بتصرف.
- 3 - ابن خلكان، وفيات الأعيان، طبع أوروبا، ص 440؛ إبراهيم مدكور: الحياة الثقافية، ص 55.
- 4 - ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، القاهرة، 1882، ج 2، ص 134؛ إبراهيم مدكور: الحياة الثقافية، ص 55.



الباطنية والفلاسفة<sup>1</sup>. واجتذب نظام الملك (484هـ) صديقه عمر الخيام (526هـ) الشاعر والرياضي الفلكي من خراسان إلى بغداد فأصلح تقويم الفرس القديم، ووضع زيجاً لملكشاه<sup>2</sup>. وتذكر المصادر التاريخية أن بغداد كانت قادرة على إعطاء الداخلين إليها ما يرغبون فيه، من رفاهية العيش ولذاته، ومن متعة المعرفة زاداً لا ينضب، فقد وُجد مكتوباً على بعد أميال قليلة منها وعلى طريق مكة:

أيا بغداد يا أسفي عليك متى يقضي الرجوع لنا إليك؟  
 قنعنا سالمين بكل خير وينعم عيشنا في جانبك<sup>3</sup>  
 ووجد على حائط بجزيرة قبرص مكتوباً:

فهل نحو بغداد مزار، فيلتقي مشوق ويحظى بالزيارة زائر  
 إلى الله أشكو، لا إلى الناس، إنه على كشف ما ألقى من الهمّ قادر<sup>4</sup>

وعندما ناهزت بغداد العباسيين الثلاثين من عمرها، بدأت تجتذب أهل الفنون والآداب، فلم يكن غريباً أن تصبح مركزاً للغناء والفن، خاصة وأن اضطراب الحجاز بعد وصول العباسيين إلى سدة الخلافة كان من الأسباب المساعدة على ذلك.

وعرف الغناء دفعة قوية نحو التقدم على عهد الرشيد تتناسب مع ازدهار عاصمة الخلافة الجديدة، وما صارت عليه أبهة الملك على عهد العباسيين. وأظهرت دفعة التقدم هذه - كما كان الحال في بقية العلوم والفنون - أسراً تتوارث العلم والفن، كما كان الحال في تنظيم طبقات أصحاب الحرف والمهن والصناعات، ففي مجال الغناء ظهرت أسرة آل الموصلية التي توارثت

1 - عبد الرحمن بدوي: مؤلفات الغزالي، القاهرة، 1961، ص 21 - 22؛ إبراهيم مدكور: الحياة الثقافية، ص 55.

2 - القفطي، تاريخ الحكماء، القاهرة، 1935، ص 162 - 163؛ إبراهيم مدكور: الحياة الثقافية، ص 55.

3 - شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي: معجم البلدان (دار صادر - بيروت، 1995م)، 462/1.

4 - ياقوت: معجم البلدان، 462/1.

هذا الفن ابناً عن أب، والتي وصلت به إلى ذرى الازدهار والتقدم بفضل جهود إبراهيم الأب وإسحق الابن، ثم حماد الحفيد. وإلى جانب إبراهيم وبنيه ظهرت شخصيتان مهمتان في عالم الغناء هما: ابن جامع السهمي والأمير المطالب بالخلافة إبراهيم بن المهدي الذي كان مغنياً عظيماً وراعياً كبيراً للفن، وبذلك سار العباسيون على النهج نفسه الذي سنّه الأمويون، وإن أصبح ذلك - في عهد العباسيين - تقليداً كسروياً أكثر تطوراً وتقدماً بطبيعة الحال. كما اهتم كبار المفكرين من الفلاسفة والأطباء بالموسيقى والفن، بين ما اهتموا به من أعمال الفكر الأخرى، مما سببته عليه ظهور موسوعات

موسيقية علمية صرفة كتلك التي قام بها الكندي والفارابي<sup>1</sup>، كانت من مزايا مدينة بغداد المعرفية على المستويين العالمي والمحلي جعلتها قادرة على إنتاج بحوث لها القدرة على خلق معرفة جديدة في مجالات العلوم والفنون.

**هيمنت القوة المعرفية والثقافية لبغداد (التي تمثل الكّل الحضاري والمعرفي المزدهر للدولة الإسلامية، والمترتبة على عرش المجد السياسي في التوسّع والنفوذ والقوّة) على الوجدان الشعبي العربي الذي احتفى بالمدينة في المخيلة الشعبية.**

وهيمنت القوة المعرفية والثقافية لبغداد (التي تمثل الكّل الحضاري والمعرفي المزدهر للدولة الإسلامية، والمترتبة على عرش المجد السياسي في التوسّع والنفوذ والقوّة) على الوجدان الشعبي العربي الذي احتفى بالمدينة في المخيلة الشعبية فاهتم السارد الشعبي في

(حكايات ألف ليلة وليلة، وحكايات مائة ليلة وليلة، والحكايات العجيبة والأخبار الغريبة) بإيراد جزء كبير من أحداث حكاياته في مدينة بغداد، وذلك لما تمثّله هذه المدينة من أهمية في نفس المتلقي، فهي مركز الحكم السياسي، ومقر إقامة الخليفة رمز إقامة شرع الله في أرضه ورمز وحدة المسلمين، بالإضافة إلى دورها الثقافي المتمثّل في ازدهارها بالعلماء والمترجمين والشعراء والكتّاب ومجالس العلم، وبيوت الحكمة والمدارس

1 - سعد زغلول عبد الحميد، وآخرون: دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية العربية (منشورات ذات السلاسل، ط2، الكويت، 1986م)، ص 419، 428.



وخزائن الكتب، وغير ذلك من الإشعاعات الثقافية، وبخاصة في العصر العباسي<sup>1</sup> (132هـ/750م - 232هـ/847م) إذ تحتفي الحكايات بالخليفة هارون الرشيد، وزوجته البرمكية، وندمائيه، ومسامريه كأبي نواس والخليع الدمشقي. ففي حكاية «الملك عمر النعمان وولديه شركان وضوء المكان نجد الراوي ينقل عمر النعمان من دمشق إلى بغداد من دون مسوغ يذكر، وانتقال هذا الملك لا يخدم سبب الحكاية، ولا منطق الحكيم، أو الوحدات السرديّة في تشكيلها للأحداث، بل هو انتقال إيديولوجي، يعبر عن رغبة الراوي في أن تكون بغداد هي المدينة المركز، والأهم من دمشق، فبغداد لدى الراوي «موطن الخلفاء والسلطان والسياسة قد احتلت هذا المركز الأهم في الأذهان، وأصبحت كل مدينة لا تجد من نفسها قوة التأثير التي تتمتع بها بغداد»<sup>2</sup>. فصورة بغداد في ألف ليلة وليلة هي الصورة التاريخية التي تحدّث عنها الأدبيات التاريخية الكلاسيكية، وعندما نقرأ بغداد في الليالي، فإننا نقرأها في هذه الأدبيات بملامحها وعلاقاتها وأخبارها بنفسها وإن كانت الليالي قد أعطتها عظمة سحرية وقوة ثقافية تخيلية فاقت حدّ الواقع، فإن هذه العظمة تستقي كثيراً من ملامحها من الواقع الحقيقي لمدينة بغداد<sup>3</sup>.

ويشير بعض رواة ألف ليلة وليلة إلى كثير من مكونات ثقافة بغداد، وفضاءاتها المعرفية. ففي حكاية «الحّمّال والبنات» التي تدور أحداثها في عصر هارون الرشيد، تطلب البنات الصغرى من ابن ملك المدينة الممسوخة حجارة سوداء، أن يذهب معها إلى بغداد باعتبار بغداد موطناً للعلماء، وفيها: «قلت له: أيها الشاب هل لك أن تروح معي إلى مدينة بغداد، وتنظر إلى العلماء وإلى الفقهاء فتزداد علماً وفقهاً»<sup>4</sup>.

- 1 - نبيل حمدي عبد المقصود الشاهد: العجائبي في السرد العربي القديم مائة ليلة وليلة والحكايات العجيبة والأخبار الغربية نموذجاً (مؤسسة الوراق للنشر والتوزيع، عمان 2011م)، ص 332.
- 2 - سهير القلماوي: ألف ليلة وليلة (تقديم جابر عصفور، مكتبة الأسرة، القاهرة، 1997م)، ص 265.
- 3 - محمد عبد الرحمن يونس: بغداد المدينة، الدولة، المركز في حكايات ألف ليلة وليلة - دراسة تاريخية واجتماعية وسياسية (بحث منشور ضمن أبحاث جامعة ابن رشد بهولندا) ص 4.
- 4 - ألف ليلة وليلة: (منشورات دار الحياة، بيروت، دون تاريخ)، 80/1.

وتشير حكاية «تودد الجارية» إلى أن بغداد في الليالي تربعت قمم المعرفة في مختلف أنواع المعارف والعلوم، بشخص إحدى بناتها من الجواري، وهي «تودد» الجارية بين يدي الخليفة الرشيد، تؤكد له أنها قادرة على بَرِّ كل علماء بغداد، فيحضر لها العلماء، وتبدأ هي بمناظراتهم في جميع علوم عصرها، وتتفوق عليهم في معرفة هذه العلوم، ويظهر السارد في الحكاية معارف عصره العلمية التي تمتد إلى جميع الحقول المعرفية التي عرفتها حضارة بغداد العباسية، والحضارات قبلها، أو التي تزامنت معها: في الفقه والتفسير، ودلالات اللغة<sup>1</sup>، والعلوم الدينية،

**تشير حكاية «تودد الجارية» إلى أن بغداد في الليالي تربعت قمم المعرفة في مختلف أنواع المعارف والعلوم، بشخص إحدى بناتها من الجواري، وهي «تودد» الجارية بين يدي الخليفة الرشيد.**

وقراءات القرآن السبع، وإعراب آياته<sup>2</sup>، وعلوم الفلسفة، والمنطق والأخلاق والحكمة وعلوم الصحة النفسية والجنسية<sup>3</sup> والعلوم المجردة، كالرياضيات والهندسة والفلك<sup>4</sup>، والتنجيم والكواكب والأبراج<sup>5</sup>. وقد شهدت مصادر التاريخ على معرفة في علم الفلك في العصر العباسي، فقد: «كان الفلكيون المسلمون قادرين على إيجاد مواقع الكواكب في مداراتها الخاصة بسهولة نسبية، فقد استطاعوا الانتقال إلى تحليل وتطوير النظريات المتعلقة بالكواكب السيّارة التي وصلت إليهم من العصور القديمة»<sup>6</sup>.

1 - ألف ليلة وليلة، 240/3.

2 - ألف ليلة وليلة، 245/3.

3 - ألف ليلة وليلة، 255/3.

4 - ألف ليلة وليلة، ص 258.

5 - ألف ليلة وليلة، 257/3، 258، 259.

6 - فيرنيه، جون: الرياضيات والفلك والبصريات (ضمن بحوث كتاب تراث الإسلام، تصنيف شاخت وبوزورث، ترجمة: حسين مؤنس، وإحسان صدقي العمدة، سلسلة عالم المعرفة، العدد 12، الكويت، 1988م)، ص 322؛ محمد عبد الرحمن يونس: بغداد المدينة، الدولة، المركز في حكايات ألف ليلة وليلة، ص 9.



هذه هي بعض الملامح الثقافية والمعرفية لمدينة بغداد كما ذكرها الموروث الشعبي، وهذه الملامح لا تختلف كثيراً عن ملامحها التاريخية والحضارية المزدهرة، كما ذكرتها المصادر والمراجع، فقد أنشئت هذه المدينة لتجسد «الطموح إلى الجديد، ورمزية الجدة والمعرفة وقوة الثقافة»<sup>1</sup>.

إن موقعها الجغرافي المتميز باعتبارها «مفترق طرق بين بحار الشرق وبحار الغرب، وبين بلدان العرب والعجم بين دجلة والفرات، دجلة شرفيها، والفرات غربيها، مشرعة للدنيا»<sup>2</sup>، إضافة لقوتها الثقافية الناعمة، جعلها في السرديات التاريخية والشعبية أهم فضاء مكاني في ارتحالات السرد، وحركة الأبطال، وتشكيل الأحداث. فكانت بغداد في الليالي ملاذاً أو مدينة حميمة لأبنائها وفضاءً آمناً لكثير من الشخوص الغريباء، الذين فضلوها على بلدانهم، فمنار السنا - ابنة ملك الجان في واق الواق - ترفض مجد أبيها وهيبته وسطوته بين الجزائر الكثيرة، وتأتي لتعيش في بغداد مع زوجها حسن البصري؛ لأنها عايشت جمال بغداد سابقاً، ولا تستطيع أن تفارقها<sup>3</sup>.

فالخروج من بغداد هو خروج صوب المجهول، تكتنفه الحيرة والخوف والجوع، والنفي والضياع<sup>4</sup>، يقول الراوي عن خروج الأمير كان ما كان: «فإنه لما خرج من بغداد صار متحيراً في أمره، ولم يدر إلى أين يتوجه، ثم إنه سافر في البرّ ثلاثة أيام وحده ولم يرَ راجلاً ولا فارساً، فطار رقاده وزاد سهاده وتفكر أهله وبلاده، وصار يتقوت من نبات الأرض ويشرب من أنهارها»<sup>5</sup>.

أما الرحلة عن بغداد إبان مجدها، فلم تكن تحدث إلا لظروف خاصة وتحت تأثير أحداث معيّنة، كرجوع قاطنيها إلى مدنهم التي هاجروا منها،

- 
- 1 - محمد عبد الرحمن يونس: بغداد المدينة، الدولة، المركز في حكايات ألف ليلة وليلة، ص 17.
  - 2 - أحمد بن إسحاق بن جعفر بن وهب بن واضح اليعقوبي: البلدان، (دار الكتب العلمية - بيروت، 1422هـ)، ص 22.
  - 3 - محمد عبد الرحمن يونس: بغداد في حكايات ألف ليلة وليلة، ص 16.
  - 4 - المرجع السابق، ص 17.
  - 5 - ألف ليلة وليلة، 90/2.

طوعاً أو كرهاً، محكومون بحنين قوي إليها، وكان القاضي أبو محمد عبد الوهّاب بن علي بن نصر المالكي قد نبا به المقام ببغداد فرحل إلى مصر في عهد الظافر (544هـ/549هـ)، فخرج البغداديون يودّعون وجعلوا يتوجعون لفراقه، فقال: والله لو وجدت عندكم في كل يوم مدّاً من الباقيّ ما فارقتكم، ثم قال:

سلام على بغداد من كلّ منزل      وحقّ لها منّي السلام المضاعف  
فوالله ما فارقتها عن قلى لها      وإني بشطّي جانبيها لعارف  
ولكنها ضاقت عليّ برحبها      ولم تكن الأرزاق فيها تساعف  
وكانت كخّل كنت أهوى دنوّه      وأخلاقه تنأى به وتخالف<sup>1</sup>

ولما حجّ الرشيد وبلغ زرود التفت إلى ناحية العراق وقال:

أقول وقد جزنا زرود عشية      وكادت مطايانا تجوز بنا نجدا<sup>2</sup>

**من المرجح أن أبا نصر  
الفارابي لم يترك بغداد  
إلا بسبب ما شاع فيها من  
فتن واضطرابات، لم  
يقو على مواجهتها وهو  
شيخ هرم، ولم يعمر  
بعد هجرته في رحاب  
سيف الدولة بن حمدان  
إلا بضعة سنوات.**

أما الإمام الشافعي (204هـ) مثلاً لم يسلم فيها من اضطهاد وحسد وغيره، وبدا له أن يسافر إلى مصر لينشر فيها مذهبه، وليعوض أهلها ما فقدوه من فقه الليث بن سعد (175هـ)<sup>3</sup>، والمرجح أيضاً أن أبا نصر الفارابي لم يترك بغداد إلا بسبب ما شاع فيها من فتن واضطرابات، لم يقو على مواجهتها وهو شيخ هرم، ولم يعمر بعد هجرته في رحاب سيف الدولة بن حمدان إلا بضعة سنوات<sup>4</sup>. ودعا عبد الرحمن الناصر (350هـ) - خليفة الأمويين

1 - المقريزي: الخطط 1/384؛ عبد اللطيف حمزة: الحركة الفكرية، ص 230؛ سحر السيد: الهجرات، ص 148.

2 - ياقوت: معجم البلدان، 1/462.

3 - Encyc de L'Islam, Shafii, IIV, p. 261-262؛ إبراهيم مذكور: الحياة الثقافية، ص 55.

4 - إبراهيم مذكور: الحياة الثقافية، ص 56.



في الأندلس - أبا علي القلي (356هـ) الأديب واللغوي لزيارة قرطبة، فلم يَرِ بدأً من أن يلبي الدعوة، ويهجر بغداد التي لم يكن ينعم فيها برحابة العيش. والإمام الغزالي أخيراً اضطرته أزمة نفسية للرحلة عن بغداد. ويظهر أنه حَزَّ في نفسه كثيراً العدوان الفاحش على نظام الملك الذي قتل غدرًا بأيدي الباطنية<sup>1</sup>. وفي المائة سنة الأخيرة التي سبقت الغزو المغولي، مرّت ببغداد فترة ركود طويلة أذهبت نفوذها، وأضعفت روح البحث فيها، وصرفت عنها كبار الباحثين الذين وجدوا في مدن إسلامية أخرى ملجأً وملاذاً، وفي مقدمتها القاهرة.

1 - عباس محمود، الفارابي، القاهرة، 1943، ص 32؛ إبراهيم مدكور: الحياة الثقافية، ص 56.